الجنس والمجتمع في شعر نزار قباني

بقلم المستشرق الامريكي الدكتور اريك لوبا

« لم يخلق العرب فنا عظيما خاصا بهم ، انما عبّروا عن غريزتهم الفنية عن طريق واحد... هو الكلام.. والشعر».

فيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب»

لعله ليس من شعب في العالم كان قد اعطى في شعره من المعلومات عن حالته الاجتماعية والبيئوية التي عاش فيها اكثر مما فعل العرب في شعرهم الجاهلي . وكان العرب مئات السنين قبل ظهور الاسلام وقبل ان ينشئوا لهم نظاما سياسيا قوميا قد طوروا فنا شعريا عاليا دقيقا في بحوره واوزانه وقافيته غنيا محبوكا في معانيه ولفته والفاظه . وكانت البيئة الصحراوية القاسية والحياة البدوية التي عاشها العرب رحلا لا يقر لهم قرار ، لم تكد تترك لنا اثرا بارزا عن حالتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية . فالعرب لم يشيدوا في الصحراء مدنا ولا هم كانوا قد بنوا قصورا او اقاموا اهراما تنبىء عنهم انما انبأوا عن انفسهم بتلك الاشعار الخالدة التي تناقلوها ابا عن جد وهي تتحدث الينا بفصاحة وبتفصيل قد لا نجدهما في الخطوط المسمارية مثلا او الاثار التي خلفتها شعوب اخرى .

والغريب ان نجد شعراءنا المعاصرين يستمرون في هذا النسج التقليدي البغد . ولعل في شعر نزار قباني دليلا على ما نقوله . فالقباني كرّس معظم نتاجه الشعري لمشكلة المرأة العربية ووضعها ومكانتها في المجتمع العربي وراح متكلما باسمها شاعرا بصوتها حتى صار شعر القباني لا يعكس مشكلة المرأة الاجتماعية فحسب بل مشكلة الشباب العربي من الجنسين في تجربتهم العامة وعلاقاتهم فيما بينهم في فترة عشرين سنة او اكثر كانت نقطة تحوّل مهمة ابتداء من الاربعينيات من قرننا هذا .

والمهم ان نعلم ان القباني ولد عام ١٩٢٣ في دمشق لعائلة مسلمة تقليدية من الطبقة الوسطى او فوق ذلك اقتصاديا وانه امضى صباه وشبابه في سوريا الى ان تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٤٥ . وان شبابه صادف فترة الحرب العالمية حين كانت سوريا مثلها كمثل غيرها من الدول العربية تمر في دور التغير . فبينما كان العالم يهتز عنيفا بالحرب ، كانت سوريا تفوز بنضالها اوضع حد للحكم الفرنسي على بلادها وقد رافق المرارة التي كان يشعر بها السوريون والعرب عامة نحو الفرنسيين غضب في نفوس ابناء الجيل الجديد على قيم مجتمعهم التقليدي وكان هذا الجيل الجديد (الذي ولد تحت الحكم الفرنسي وثقف ثقافة هي غربية في درجة كبيرة) يعارض الجيل القديم لتلكؤه او تقاعسه في اعتناق قيم الغرب وآرائه وتكنيكه كواسطة للحاق بركب ما كان يحسبه تقدما في العالم . فثار ابناء هذا الجيل الجديد على تقاليد الماضي وقيمه وافكاره وطريقة حياته مؤكدين ايثارهم للقيم الجديدة المتأثرة في الغالب بتعاليم الغرب الاجتماعية والفلسفية . ومما زاد في طين هذه الثورة بلة ان هذا الجيل كان يعاني مشكلة شخصية تختص بعلاقات افراد هذا الجيل من الجنسين بعضهم مع بعض او بالاحرى مشكلة انعدام تلك العلاقات او تقييدها تقييدا شالا . ومشكلة الجنس لكونها عاملا مهما ليس في حياة الافراد فحسب بل في حياة المجتمع عامة لم تغب عن بال الباحثين المعاصرين في علم الاجتماع في الغرب وفي امريكا خاصة ، فقد فطن هؤلاء الى ان المشاكل الجنسية الجماعية وبالاحرى القالب الذي تتخذه او النهج الذي تسير عليه في مجتمع ما لها اثر في حياة هذا المجتمع ولا بد ان تنعكس في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية او في الاتجاهات الاجتماعية او السياسية التي يتخذها المجتمع . فمثلا اذا كانت العلاقات التي بين الجنسين في مجتمع تقليدي ما وفي فترة معينة من تطور هذا المجتمع ، تسودها العقد النفسية المتأتية من الكبت والخيبة والشوق او الشهوة التي لا منفذ لها فلا بد ان تكون الحركات السياسية او الاجتماعية التي يقوم بها افراد هذا المجتمع عنيفة او يشوبها العنف الى حد ما لان افراد هذا المجتمع تملأهم المرارة والعطش الروحي والجسمي في حياتهم الجنسية ولعل مجرد اختيار كلمة (انتفاضة) لوصف حدث سياسي او اجتماعي في المجتمع العربي هي بعض الدليل على تأثير الجنس على السياسة والاجتماع في العالم العربي وان هذه (الانتفاضة) التي لم تتيسر جنسيا في المجتمع قد عوضت عن نفسها فصارت انتفاضة سياسية او اجتماعية فيها من العنف كثير او قليل !...

ومهما يكن من امر فقد كان المجتمع التقليدي الذي نشأ فيه القباني مجتمعا يفرق بين الجنسين ويضع حدا فاصلا بينهما مقيدا حرية التلاقي والاجتماع بل وحتى حرية التكالم وتبادل الاراء . فبينما حصلت المرأة الغربية على كامل حريتها او ما يقارب ذلك فشاركت الرجل في تطوير المجتمع الغربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ظلت اختها في العالم العربي الشرقي ملازمة لدنياها الضيقة التي هي بيت ابيها او زوجها او بيوت اخرى تعد على الاصابع هي بيوت صديقاتها او زوجات اصدقاء زوجها . والحقيقة ان حركة تحرر المرأة العربية وان كانت قد بدأت منذ نهاية القرن الماضي فان اثرها العملي بقي طفيفا بطيئا ضحلا . صحيح ان تغيرا ما قد طرأ على مركز المرأة ومكانتها الاجتماعية وذلك بتأثير التعليم والثقافة الغربية غير ان هذا التغير لم يكن عميقا او جذريا في الثلاثينيات والاربعينيات من القرن الحالي ، فان المرأة العربية على الرغم من خروجها

دون حجاب كانت ما زالت محافظة بالتقاليد الاجتماعية والقيم الاخلاقية القديمة وكان سلوكها ـ وخاصة نحو الجنس الاخر ـ ما زال يسوده نفس الاجلال والاحترام الذي ساده في الجيل القديم او قريبا جدا منه . وهكذا وجد الشاب العربي الذي كان يناضل المجتمع القديم ان المرأة هي جزء من هذا المجتمع الذي كان يكافحه كما وجد نفسه مقيدا لا يستطيع حراكا الا في طرفي نقيض ، وفي اتجاهين متطرفين محدودين : فاما تلك العلاقات التافهة السطحية بينه وبين الشابة ، تلك العلاقات التي كانت العائلة تضع اطارها وتحددها وتراقبها مراقبة شديدة وهي علاقات كان هدفها الزواج ـ واما على الاتجاه المنطرف الاخر ، تلك العلاقات البهيمية المستعجلة الموقتة مع بائعات الهوى التي كان المجتمع ـ على استهجانه الرسمي الظاهري لها ـ يقرها ويسمح بها للرجل . وكانت التقاليد تصر على طهارة المرأة التامة قبل الزواج كما تحتم عليها اخلاصا لا سؤال فيه ولا رجعة بعد الزواج بغض النظر عن شعور المرأة نحو الزوج . ولم يكن ما يتحتم على المرأة هو ما يتحتم على الرجل ، فالرجل هو الذي يسيطر على المرأة : الاب قبل الزواج والزوج في الزواج . والزوج هو الذي يعين طبيعة العلاقات الجنسية بينه وبين زوجته ويعين اوقاتها ومداها حسب اندفاعاته ورغبته هو . فالمرأة ملك الرجل وهي حرثه يأتيها متى شاء ويبعد عنها متى اراد لا متى هي شاءت او ارادت . وكان الرجل لا يطيل التفكير في ان للمرأة احساسات ورغبات وشعورا كما له هو . وهو ان فكر في ذلك نبذه خشية من هذا التفكير ووجسا لما قد تكون له من استنتاجات . وحتى لو اعتقد بان للمرأة شعورا كما له فانه كان يظن بان الاعتبار بمثل هذا الشعور على ما يجره من احترام لحقوق صاحبته هو امر ليس من الموضوع به لان في ذلك انقاصا من حقه هو او حطا من رجولته او تقليلا من اهميته ، او على الاقل ان مثل هذا الاعتبار وهذا الاحترام لحقوق المرأة انما يضع الرجل موضع الذي يتوجب عليه ان يقوم بما يجعله اهلا للمرأة متى ارادها.

والاهون الايسر من كل هذا ان يفرض ارادته وحقه دون الحاجة الى تكرار الاثبات بانه اهل لهذه الارادة وذلك الحق . وهكذا نجد ان الاهتمام بحقوق المرأة واحترام احساساتها وشعورها كان على العموم طفيفا يسيرا ، وانه ان كان لها شيء من هذا فانه قد منح لها منحا ، لا لان ذلك كان من حقها . وعليه فحين اصدر القباني اولى مجموعاته الشعرية (قالت لي السمراء) عام ١٩٤٢ فانها على كونها اليفة معتدلة ليس فيها ما يثير ضجة اذا قيست بمقاييس الغرب الاجتماعية والاخلاقية نراها اثارت ضجة ما في مجتمع القباني . فدعاة القديم واتباع التقاليد الشعرية العربية نفروا من شعر القباني ووجدوه غير مقبول بينما رأى دعاة الجديد في شعر القباني صدى لشعورهم وتجاربهم الشخصية . ومن هنا فان دور القباني كشاعر اجتماعي يرز منذ ديوانه الاول حين صب في شعره مشكلة شخصية كان هو يعانيها وكان يعانيها معه شباب مجتمعه .

وحيث ان القباني نظم شعره في المرأة وفي حبه المكبوت له في واقعية لا تستر كبيرا فيها فقد اثار حوله انتقادا عنيفا من جانب الفئات المحافظة وذلك لانه قال بصوت عال وعلى الملأ ما كان اجدر به في ظنهم ان يبقى مكتوما ، ولانه لم ينهج منهج الشعراء التقليديين في المحافظة على الوزن والقافية . وعلى هذا الضوء ، ضوء شجاعة القباني في الجهر على الملأ بمسائل اصرت تقاليد مجتمعه في الاربعينيات على كتمها يلزم بنا ان نزن اهمية شعر القباني وعلى هذا الضوء ايضا نستطيع ان نفهم ذلك الحماس الذي صادفه شعره لدى الشباب اذ تكلم على اشياء كانت تشغل قلوبهم وعقولهم ولعلهم سروا ايضا بحيد الشاعر عن قوالب الشعر التقليدي التي رأوا فيها جزءا من تلك التقاليد القديمة التي كانوا يثورون عليها .

ومهما يكن من امر وبالرغم من الانتقاد العنيف الذي وجه نحوه بما في ذلك مقالة الشيخ علي الطنطاوي (الرسالة عدد ٦٦١ ص ١٦٠٠) او حتى قول ابيه فيه (لن ينفع هذا الصبي الواهم نفسه ولن ينفع الدنيا بشيء) فان شاعرنا مضى في نشر شعره عن احساساته نحو المرأة متكلما بصوتها مدافعا عنها لائما في ذلك المجتمع والرجل الذي يسيطر عليه . حتى صار شعره ـ من هذه الناحية ـ وثيقة اجتماعية هامة كما قالت الشاعرة سلمى خضراء الجيوسي (١) .

ففي مجموعته الاولى (قالت لي السمراء) كما في المجموعات التي تلتها كانت المرأة موضوع شعر القباني الاساسي . وكان يبدو مدفوعا بنزوة جامحة نحو المرأة كان قد كبتها طويلا حتى صارت عطشا يصعب السيطرة عليه :

باعراقي الحمر ... امرأة
تسير معي في مطاوي الردا
تفح ... وتنفخ في اعظمي
فتجعل من رئتي موقدا ...
هو الجنس اهمل في جوهري
هيولاه من شاطىء المبتدا
بتركيب جسمي ... جوع يحن
لاخر ... جوع يمد اليدا (٢)

كان الشاعر في الحادية والعشرين من عمره ويمكن الفرض بان قسما كبيرا من قصائد ديوانه هذا كان قد نظم قبل ذلك بسنتين او ثلاث ، اي في مطلع الاربعينيات . ويمكن الحكم من فحوى قصائد المجموعة ومن الجو الاجتماعي في تلك الفقرة بان القباني كان يعاني كبتا تحول الى تسام (Sublimation) فحيث ان الشاعر لم يتمكن من تملك المرأة او نوالها فانها تحولت عنده مخلوقة سامية رأسها في النجم لا تطول يد الشاعر اليها :

اريدك
اعرف اني اريد المحال
وانك فوق ادعاء الخيال
وفوق الحيازة ... فوق النوال
اريدك
اعرف انك لا شيء غير احتمال
وغير افتراض
وغير سؤال ينادي سؤال ..(٣)

واذا بهذه المرأة تكاد تكون عند القباني من الآلهة او الملائكة واذا بالارض تزدهر لمجرد مس نعليها الارض :

دوسي ، فمن خطوك قد زرد
الرصيف ! (٤)

فصار مثل كثير قبله من الصوفيين يرى ملامح الاله في وجهها:

في شكل وجهك اقرأ
شكل الاله الجميل (٥)

---

(١) : راجع الآداب عدد ١١ لعام ١٩٥٧ .

(٢) من قصيدته (ورقة الى القارىء) : قالت لي السمراء، ص ٢٨

(٣) من قصيدته (اندفاع) ص ٥٦

(٤) من قصيدته (مذعورة الفستان) ص ٣٨

(٥) من قصيدته (امام قصرها) ص ٥٥

ونرى القباني يعكس صورة للجو الذي عاش فيه شباب مجتمعه في ذلك الحين حيث يتغنى بشوقه وشهوته المكبوتة التي لم تنل المرأة المرموقة فهو لا يكتب شعره عن تجربة حقيقية كان الشاعر قد جربها فعلا لاننا نشك في ذلك اللهم الا اذا استثنينا تلك التجارب التافهة مرة المذاق مع ممتهنات بيع الحب . فلهن كرس القبانياثنتين من قصائده في هذا الديوان (الى عجوز والبغي) . اما غير هذا فحبه للمرأة سائب لا يثبت عند امرأة معينة واضحة المعالم والملامح بل اكثر من ذلك ان حبه معد مبيت مستعد دائما للقفز على اية امرأةكانتعلى شرط ان يكون لها بعض الجمال والشباب ، يعرفها او لا يعرفها كزائرة يراها صدفة في مقهى فيتصور ان فنجانه يهوى فنجانها (على نمط « احبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري » في لباس عصري):

في جواري اتخذت مقعدها
يثبت الفنجان من لهفته
في يدي شوقا الى فنجانها (٦)

او قد تكون مجرد ضيفة غريبة جاءت تصطاف في مصايف لبنان الجميلة فيطير لبه الى هذه المرأة التي لا يعرف عنها سوى انها جميلة في نظره وسوى انها قعدت على المنحنى . وهي قد تكون خرساء او بلهاء او موبوءة بالامراض ولكن حب الشاعر السائب المبيت يثب عليها فيقول

أانت على المنحنى تقعدين ؟
لها رئتي هذه القاعدة .
لافرط حبات توت السياج
واطعم حلمتك الناهدة
احبك ... زوبعة من الشباب
بعشرين لا تعرف العاقبة (٧)

القباني اذن عاش كما عاش شباب مجتمعه في ذلك الحين فيحلم من الشوق والشهوة والامل الى امرأة لم يعرفها على وجه التحديد.او انه ان عرفها فانه لم يستطع وصالها فبقيت المرأة في خياله متسامية معصومة من فعل الواقع وبقيت صورتها خضراء يانعة لا تشوبها خيبة القربى وفعل السنين . ويدفع حرمان القباني الى ان يعوض عن المرأة بالطلاسم التي تتصل بها او ترمز اليها مثل منديل كانت قد امسكته باناملها او رسالة ارسلتها او خصلة شعر لا ندري كيف حصل عليها فغدا كالعابد يقبل حجر المعبد أو يقدس شجرة كان قد استظل بها الولي :

منديلك الخمري .. احيا به
ففيه من طيبك بعض الرشاش ...
وها هنا رسالة ... نثرك الغالي بها
اخفيه من كل واش
اعز ما خلفت لي خصلة
حبيبة تهتز فوق الفراش (٨)

هذه هي اذن قصائد القباني ، اغنيات شبابه وشباب جيله المتضور جوعا الى حب لم يوفقوا اليه ، حب قرأوا عنه في روايات الغرب ورأوه على الشاشة البيضاء في الافلام الاوروبية والاميركية.

ولا نرى القباني في هذا الدور بما يشير الى انه كان ينظر الى المرأة كوحدة كاملة قائمة بذاتها او انه ابدى اهتماما بدنياها الباطنة الخاصة، فالقباني يتغنىبشفائف قرمزيةاو صدر ناهد او رجلينيافعتين او عيون شهلاء (٩) كلها اعضاء من جسم المرأة فالنساء عنده في هذه الفترة لا يتعدين كونهن مخلوقات جميلات فاتنات يثرن الشهوة والشوق لا اشخاصا من البشر لهم عقل وجسم وقوة وضعف وذكاء وغباوة متساوين مع الرجل يشاركنه في افراحه واتراحه وفي افكاره وانجازاته وفشله . والقباني في هذا ايضا صدى لشعور شباب جيله الذي منعهم شوقهم المكبوت الذي لا منفذ يرضيهم له عن رؤية المرأة كانسان او كشريك في الحياة وليس كحلم ترنو اليه النفوس وآلة للمتعة ليس بعدها من متعة . والحق يقال ان قصائدالقباني حتى ولو تجردت من كل قيمة شعرية فنية (وهذا غير صحيح طبعا) فان قيمتها الاجتماعية لا جدال فيها .

هكذا يبدو القباني حين يتكلم عن المرأة التى لم ينلها وهويختلف تمام الاختلاف عندما يتكلم عن نساء اخريات يظهر انه عرفهن من قريب ومارس الحب معهن وهو الحب المشترى الذي كان متيسرا للرجال في مكانه وزمانه . فنحن لا نجد تساميا هنا ولا تاليها ولا ازدهار ارصفة الشارع بالورد والياسمين لمجرد وطئها باقدام المحبوبة، كل ما هناك اشمئزاز وقرف :

عبثا جهودك ... بي الغريزة مطفأة
اني شبعتك جيفة متقيئة
اني قرفتك ناهدا متدليا
وقرفت تلك الحلمة المتهرئة .
اخت الازقة ... والمضاجع .. والغوى
والفرفة المشبوهة المتلالئة (١٠)

والصورة التي يعكسها شعر القباني لهؤلاء النساء تبدو واقعية تشوبها الكراهية والمقت هي في الواقع كراهية الشاعر لنفسه وحقده عليها لان تقاليد مجتمعه اضطرته الى مثل هذا الحب اضطرارا وحرمته من الحب الذي كانت نفسه تتوق اليه . الواحدة من هؤلاء النساء عند القباني عجوز شمطاء ، نهودها متدلية ، رائحتها كريهة، ابطها « حفرة ملعونة الدود يملأ قعرها والاوبئة » وهذه الواقعية التي هي وليدة التجربة الفعلية يظهر نساءه هؤلاء بوضوح فنجد تفاصيل شخصية ملموسة كسن ذهبية او ركبة شاحبة « لونها لون الحياة المنكرة » او عطر « ارخص من ان اذكره » او حاجب بولغ في تخطيطه او فم متسع او وجه مجدور او ساق معروقة . هؤلاء النساء لم يكنّ نساء قد لمحهن الشاعر من بعيد وحسبهن في منتهى الكمال فاتنات دائما طيبات عطرات ابدا لا شائبة فيهن .

والحق يقال ان القباني لا يقف عند هذا الحد من وصف البغايا بل تبرز انسانيته واحساسه المرهف لكل ظلم اجتماعي يقع على هؤلاء النساء فيلوم الرجال ويلوم المجتمع فينطق بلسانهن مخاطبا الرجال :

يا قضاتي ، يا رماتي انكم
انكم اجبن من ان تعدلوا

اي رق ... مثل انثى ترتمي
تحت شاريها باوراق ضئيلة
قيمة الانسان ما احقرها

---

(٦) من قصيدته (في المقهى) ص ٦٣

(٧) من قصيدته (الى مصطافة) ص ١٠٢

(٨) من قصيدته (غرفتها) ص ٧٣

(٩) راجع قصائده : (فم) و(زيتية العينين)و (نهداك) و (رافعة النهد) الخ ...

(١٠) من قصيدته (الى عجوز) ص ١٣١

زعموه غاية ... وهو وسيلة
تسأل الانثى اذا تزني وكم
مجرم دامي الزنا .. لا يسأل
وسرير واحد ضمهما
تسقط البنت ويحمى الرجل (١١)

هكذا منذ ديوانه الاول اخذ القباني جانب المرأة ملقيا مسؤولية الظلم والاجحاف الواقع عليها على كاهل الرجل والمجتمع الذي يسيطر عليه الرجل . والقباني ملؤه الرحمة والشفقة والتفهم نحو المرأة في جميع الاحوال الا في حالة الزوجة التي تخون زوجها فيسمي مثل هذه المرأة «لئيمة» ويسميها « مدنسة الحليب » حيث يرى ان مثل هذه المرأة لا تجرم في حق زوجها فحسب بل هي تؤذي اولادها.

ولم يتغير موقف القباني من المرأة عندما كان في العشرين من عمره وحتى بلوغه الثلاثين او اكثر من ذلك بقليل . وبعبارة اخرى لم يتغير موقف القباني من المرأة تغيرا كبيرا في الاربعينيات والخمسينيات من هذا القرن فانه في مجموعاته الاربع التي اصدرها منذ عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٥١ (قالت لي السمراء ١٩٤٢ ، طفولة نهد ١٩٤٨، انت لي ١٩٥٠ سامبا ١٩٥١) ينسج فيها على نفس المنوال تقريبا وظل شكل المرأة الخارجي وجسمها واعضاء جسمها تشغل فكره دون ميزاتها الروحية او الفكرية كانسان لها عقل بالاضافة الى الجسم ، كما بقيت اشعاره الغزلية في كل هذه المجموعات تبدو وكأنها قصيدة طويلة واحدة يتغنى فيها حسناواته الكثار اللواتي تبدو لنا ملامحهن غير واضحة فهي ملامح عامة غير معينة كأن الشاعر لم يعرف حسناواته عن كثب او بصورة طبيعية انما يراهن بعين الخيال ويخلقهن من اشواقه المكبوتة المتسامية اكثر مما يراهن بعين الواقع . ومع ذلك فالقباني يضيف ، هنا وهناك ، ابعادا جديدة الى شعره الغزلي فيفطن الى الطبيعة ويذكر القمر والغيوم والمطر والعصافير . وهكذا يتسع مسرح شعره الغزلي وتتسع حدوده . وثم هنالك تغيير اخر طرأ على شعره بحيث يدعو الى الفرض بان حب القباني لم يعد محدودا للشوق الذي لا منفذ له بل خرج منه بعض الشيء الى التجربة الفعلية :

ان الثم اليمين منك
قلت : والشمال
ما دمت لي : مالي وما
قيل وما يقال (١٢)

ويبدو ان « تخرّج » القباني من مدرسة الشوق والحنين الى مدرسة الممارسة الفعلية لهذا الشوق والحنين من عناوين قصائده فلم نعد نرى اشعارا ـ كما في ديوانه الاول ـ تعنون « الى مصطافة » او « امام قصرها » او « اسمها » او « في المقهى » او « غرفتها » او « مذعورة الفستان » وهي كلها عناوين قصائد نجدها في ديوانه (قالت لي السمراء) بل نرى في مجموعاته التالية عناوين جسرة مثل « همجية الشفتين » او « مصلوبة النهدين » او « القبلة الاولى » او « عند امرأة » ، ثم دعنا نسمعه :

كانت تئن مثلما
يئن ذئب مجهد
ترنو الي لبوة
برغبة لها يد
وساقها من عتمة
الفطاء افعى تشرد
وجسمها تحت اللهيب
مرعب مورد
والعقد فوق ناهديها
سابح .... مفرد
كعقدها غريزتي
تنهار ثم تصعد ... (١٣)

نعم تخرّج القباني من مدرسة الحنين والخيال... ولكنه مع ذلك كله لم يزل يرى في المرأة جسما ، وفتنة ومتعة ، لا غير ..

ثم اصدر القباني عام ١٩٥٠ مجموعة جديدة (انت لي) نجد فيها شيئا جديدا : نجد الجموح الجنسي قد هدأ بعض الشيء وهدأ ذلك التحليق العالي المتسامي في جو المرأة المثالية التي لا تشوبها شائبة . لم يكن هذا الشيء الجديد الذي نجده حدثا ثوريا او انقلابا بعيد الاثر بل انه قد لا يلفت النظر اليه لاول وهلة . كان هذا هو استطاعة القباني لاول مرة ان ينظر من ثقب مفتاح صغير الى عالم المرأة الداخلي . كان هذا شيئا بسيطا ، محاورة بين امرأة شابة واختها وهي تستعد لمقابلة حبيبها :

قلم الحمرة ... اختاه
اين اصباغي
ومشطي
والحلى
ان بي وجدا
كوجد الزوبعة ! (١٤)

اخيرا اكتشف شاعرنا ان المرأة الحسناء انسان مثل الرجل لا تعيش في السماء بل تتكلم عن امور عادية يومية مثل اصابع حمرة او امشاط واهم من ذلك كله اكتشف الشاعر ان للمرأة وجدا «كوجد الزوبعة كما للرجل . لم تعد امرأة القباني تلك المخلوقة السماوية المتكبرة ، شامخة الانف بحسنها وجمالها وفتنتها او كما يقول منير العجلاني « في عرس من اعراس الالهة » متربعة على عرشها في جبل الاولمب حول رأسها هالة من الجمال والرهبة . وبالرغم من هذا كله لا نجد القباني متحررا من نظرته الجسمانية الجنسية بالدرجة الاولى الى المرأة حتى عام ١٩٥٦ حين نشر مجموعته (قصائد من نزار قباني) . هنا نجده اخيرا يهتم بفكر المرأة اهتمامه بجسمها . لم يعد القباني غارقا في النهد والساق ذلك الغرق الذي كاد يعميه عن التفكير في اي شيء اخر يمكن ان يكون في المرأة . صار القباني الان يهتم بحبه لها وقيمته :

دعي حكايا الناس
لن تصبحي
كبيرة ... الا بحبي الكبير (١٥)

---

(١١) من قصيدته (البغي) ص ١٤٨ ـ ١٥٤
(١٢) من قصيدته (وشوشة) في مجموعته (طفولة نهد) ص ٤٢
(١٣) من قصيدته (عند امرأة) في ديوان (طفولة نهد) ص ١٦٨.
(١٤) من قصيدته (الشقيقتان) في (انت لي) ص ١٦
(١٥) من قصيدته (رسالة حب صغيرة) في (قصائد نزار قباني) ص ١٣

وفي هذه الفترة ايضا برز دور القباني كناطق بلسان المرأة العربية ، مدافعا عنها متهما المجتمع والرجل بالظلم والقسوة وعدم الاحترام ثم ابرز احساسات المرأة نفسها وامالها وما يحز في نفسها وموقفها من الرجل الذي يستعملها آلة دون الاكتراث بشعورها هي. ولعلنا نجد القباني في ذروته الشعرية في هذا الباب في ثلاث قصائد تمثل هذا الدور هي (اوعية الصديد) و(حبلى) و (رسالة من سيدة حاقدة) . ففي اوعية الصديد نسمع المرأة تحقد في مرارة وعنف وثورة على الرجل وعلى نوع العلاقات الزوجية التي غدت فيها وعاء لاشباع رغباته الجنسية بالاكراه فتنتدب المكانة التي زواها فيها المجتمع وتقاليده («يا ويل اوعية الصديد) هي ليس تملك ان تريد ولا تريد ») . وفي (حبلى) تحمل المرأة بمرارة وقلب مكلوم على الرجل القاسي حين يكتشف بانها حبلى وبانه قد يتحمل مسؤولية عبثه بالمرأة . اما في (رسالة من سيدة حاقدة) فيصف القباني مكر الرجل في اغرائه للمرأة ثم انكارها وايصاد ابوابه في وجهها كي يخلو له الجو مع اخرى كان قد اصطادها بحبال مكره وهلم جرا .. :

لسوف نخبرها بما اخبرتني
وسترفع الكاس التي جرعتني
كأسا بها سممتني
حتى اذا جاءت اليك
لتردد موعدها الهني
اخبرتها ان الرفاق
أتوا اليك .... (١٦)

ولعل اهم شعر القباني من الناحية الاجتماعية قصيدته (خبز وحشيش وقمر) التي نشرها عام ١٩٥٤ وهي بالرغم مما فيها من مبالغة فقد ابرزت ما تقاسيه الجماهير الفقيرة في الشرق العربي من رجعية وفقر وانحلال وتواكل ومرض فيضيع اهم شيء لديها وهو كبرياؤها وانسانيتها . والقصيدة اشهر من ان نورد منها بعض الابيات هنا .

ثم جاءت مجموعة القباني التالية (حبيبتي) وضمت قصيدتين للمرأة هي (صوت من الحريم) و(الحب والبترول) يطالب فيهابقوة منح المرأة الحب المتبادل المتساوي والاحترام المتبادل . والحقيقة انه وان كان قد طرأ تغيير في الخمسينيات على مكانة المرأة في المجتمع العربي واصبحت مصر الدولة العربية الاولى التي فازت فيها امراتان بالانتخابات للمجلس الوطني عام ١٩٥٧ وفي سوريا حازت المرأة على حق التصويت عام ١٩٥٩ بينما صار العراق اول بلد عربي عينت فيه امراة وزيرة عام ١٩٥٩ ، فانه بالرغم من ذلك فان المرأة العربية على العموم محافظة ، مقيدة وبقيت للرجل مكانته العليا فيالسيطرة على المرأة واملائه ارادته عليها كما بقي المجتمع ينظر الى حرية المرأة ـ وخاصة « فيما يتعلق بالعلاقات مع الجنس المقابل ـ بنظرة صارمة ملؤها الشك نحو المرأة اذا ما هي حادت قيد انملة عما كان المجتمع يعتبره مقبولا .

وفي هذه الفترة نرى القباني يمر بدور اخر من دور التطور في شعوره نحو المرأة ، وهو تطور لا يعكس فقط نضجه الشخصي (نشر هذه المجموعة عام ١٩٦١ حين كان قد بلغ الثامنة والثلاثين من عمره) بل تعكس ايضا بداية اجتماعية عامة لموقف من المرأة هو اكثر تفهما لها كانسان يمكن للرجل ان يحبها او على الاقل ان يزنها ليس بميزان غريزته فقط بل وبعقله ايضا . ويعكس هذا الموقف الجديد تغييرا تدريجيا يكاد يكون غير منظور كان قد طرأ على المجتمع العربي . فقد شب في الخمسينيات وبداية الستينيات جيل جديد قربى في جو سمح اكثر من الجيل الغابر له قسط لا بأس به من الحرية في علاقاته مع المرأة حيث كان قد درس معها في المدرسة والجامعة ومن هنا ايضا كان هذا التفهم لها ورؤيتها كانسان له نقاط ضعف وقوة وليس كالهة تسكن قمة الاولمب الشامخة .

في هذه المجموعة ايضا نجد غالبية الثماني والعشرين قصيدة تدور حول الحب وحول المرأة ، غير ان الشاعر صار يبحث الان عن شيء اوسع من الحب الجسماني البحت . صار حبه فلسفيا الى درجة ما يعبر عن نفسه بالكلام ويجد لذة في هذا التعبير :

عندي للحب
تعابير
ما مرت في بال دواة (١٧)

ان الذي يرقص الان في مخيلة الشاعر هو ليس خصلة شعر او نهدان او ساقا امرأة انما هي الكلمات التي تتراقص :

سيدتي
عندي في الدفتر
ترقص الان الكلمات
واحدة
في ثوب اصفر
واحدة في ثوب احمر (١٨)

ويمضي القباني في هذه الفقرة في كونه ناطقا بلسان المرأة مدافعا عن حقوقها ولكنه الان يتقمص روح المرأة فاذا به يشعر بما تشعر واذا بنا نراها تريد الاحترام وتريد ان تحب ليس كمتعة او كمتاع بل كهي نفسها كما هي ثم دعنا نسمعها تخاطب الرجل :

« تحبني »
الجملة الجوفاء ذاتها ...
« تحبني »
كاي ... اي امرأة .. تحبني
وجه انا ..
وجه من الوجوه في دفترك الملون
جريدة صفراء
تطويني اذا قرأتني ...
ولعبة من ورق
تشيلني ...

---

(١٦) من قصيدة لنزار قباني

(١٧) من قصيدته (اكبر من كل الكلمات) في ديوان (حبيبتي)ص١١

(١٨) من قصيدته (اكبر من كل الكلمات) في ديوان (حبيبتي) ص ١٥ .

تحطني ...
فان رايت لعبة جديدة
حطمتني ...
« تحبني » : معزوفة معادة
رخيصة اللحن
تديرها . تديرها
لكل وجه حسن ..
قل غيرها ...
قل تشتهي طيبي ، ودفء مسكني
قل انني جميلة ... وسهلة ..
تريدني
محظية جديدة
تدفنها
وراء جدران الحريم المزمن ...
اما انا
فانني ...
ابحث يا مستثمري ..
عن رجل يحبني
وانت لا تعرف ان تحب .. ان تحبني
فانت غاوي تحف
ميدانك العيون
لا ما وراء الاعين ! (١٩)

وفي قصيدته الاخرى (الحب والبترول) يضرب القباني على نفس الوتر وهو مطالبة المراة بالاحترام اللائق بها كانسان

متى تفهم ؟
متى يا سيدي تفهم ؟
باني لست واحدة
كغيري من صديقاتك
ولا فتحا نسائيا
يضاف الى فتوحاتك ...
متى تفهم ؟
ايا جملا في الصحراء
لم يلجم

ويا من ياكل الجدري
منك الوجه ... والمعصم
باني لن اكون هنا
رمادا في سيجارتك
وراسا
بين آلاف الرؤوس على مخداتك ..
ونهدا .. فوق مرمرة
تسجل شكل بصماتك ..
متى تفهم ؟
باني لست من تهتم
بنارك او بجناتك
وان كرامتي اكرم
من الذهب المكدس بين راحاتك ..
متى تفهم ؟

هكذا وبصورة عامة تطورت نظرة القباني نحو المراة فن خمس وعشرين سنة او حوالي ذلك . ونحن لا نذهب الى القول بان القباني يعكس في هذا التطور ما قد طرا من تطور في المجتمع السوري او العربي على جميع طبقاته . فليس ثمة شك بان هنالك في هذه المجتمعات طبقات ما زالت تعيش على التقاليد واخرى انطلقت تبعد عنها . انما تقول بان القباني يعكس تطورا طرا على فئة معينة هي فئة المثقفين من الطبقة الوسطى ولدوا في العشرينيات ، جذورهم في تقاليد الماضي وفروعهم في جو من الرومانطيقية الغربية والفلسفة الاجتماعية الغربية .

(الولايات المتحدة) جامعة بنسلفانيا
اريك لويا

(١٩) من قصيدته (صوت من الحريم) من ديوانه (حبيبتي ص ١٥٦

متى يطلع الفجر يا رفيق ؟
قصة الثورة الروسية
بقلم جان بول اوليفيه
ترجمة بطرس طرابيشي
صدر حديثا عن دار الاداب
٧٠٠ ق . ل .